أ.د. عبده بدوي
- مصر -

أيُّ فتىً .. العرجيُّ

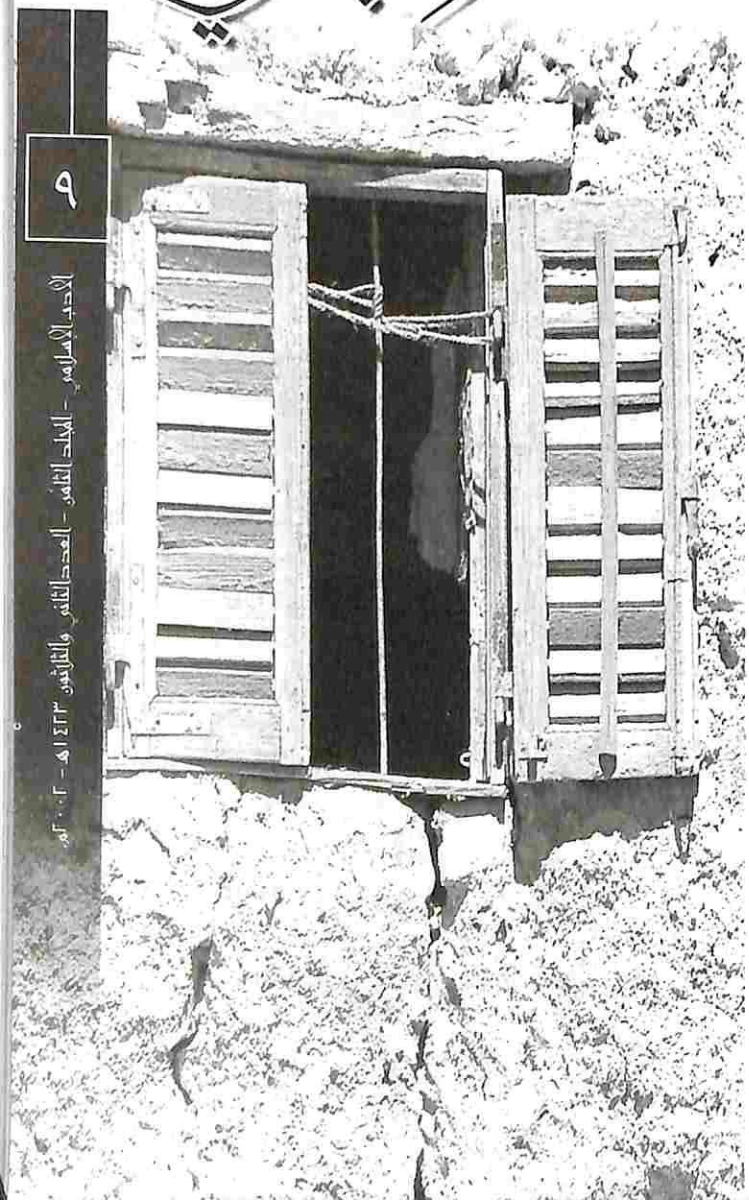

١- أضاعوني .... وأيَّ فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر
٢- وصبر عند معترك المنايا
وقد شرعت أسنتها لنحري
٣- كأني لم أكن فيهم وسيطاً
ولم تك نسبتي في آل عمرو
٤- أجرَّرُ في الجوامع كل يوم
ألا لله مظلمتي ، وصبري
٥- عسى الملك المجيبِ لمن دعاه
ينجيني ، فيعلم كيف شكري ؟
٦- فأجزي بالكرامة أهل ودي
وأورث بالضغائن أهل وتري!

شارك الشاعر بعمق في جد الحياة وهزلها ، فقد خرج غازياً في أرض الروم مع « مسلمة بن عبد الملك عام ٩٧هـ ، وأنفق جانباً من ماله - وكان ثرياً - في العديد من جوانب الخير ، فلما تولى هشام بن عبد الملك إمارة المؤمنين طمع في أن تسند إليه إمارة مكة أو المدينة ولكن الخليفة وضع عليهما خاليه ، فكانت مكة من نصيب محمد بن هشام والمدينة من نصيب إبراهيم بن هشام. وكان أن أكل الغيظ قلبه ، وقد بدأ فشبَّب بأم محمد بن هشام ، وبزوجه ، وبأخته ، على غير معرفة بهن ، وكان أن ترصد

له محمد بن هشام واتهمه بجريمة قتل مع راوية شعره ، وكان أن سُيِّرا لمكة مكبلين ، ثم كان الجلد والحلق وصب الزيت على الرأس. وقد توهم الشاعر أن الخليفة سيغضب له ، وأن قبيلة قريش ستثور على الحاكم ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، ومن ثم كان سجن الشاعر ، وأقسم والي مكة ألا يخرج من السجن مادام حاكماً ، وكان أن ظل في السجن تسع سنين حتى توفي به ، وكفن ، وخرج منه إلى المقبرة .وحين كان الشاعر في محنته قال هذه الأبيات التي لا تزال تتردد على لسان كل من وقعت به محنة حتى اليوم ، ومع أنه قد مات محزوناً محسوراً إلا أن التاريخ قد انتصف له فى عهدبنى أمية والعباسيين .(١)

وعلى كل فحين ضاعت منه الإمارة التي طمع فيها انكب على اللهو ،وجلس على العرش الفني الذي كان قد خلَّفه بالموت عمر بن أبي ربيعة ، وقد ذكروا أن حبشية من مكة ذهبت إلى المدينة ، وحين أتاها فى يوم موت عمر بن أبي ربيعة اشتد جزعها ، وجعلت تقول : من لمكة وشعابها وأباطحها ونزهها بعده ؟ ومن لوصف مافيها ؟ ووصف نسائها ؟ ، وحسنهن وجمالهن ، وملاحتهن؟ فلما قيل لها : خفضي عليك ، فقد نشأ فتى من ولد عثمان يأخذ مأخذه ويسلك مسلكه ، طلبت أن تنشد شيئاً من شعره ، وحين أنشدوها ، مسحت عينيها ، وضحكت ، وقالت : الحمد لله الذي لم يضيع حرمه ، سرَّيتم – والله عني !

.. وما يهمنا أن الشاعر لملاحته ، وغناه ، وإحاطته نفسه بالصعاليك ، ولموت والديه مبكرا ، ولإحباطه سياسياً ، ارتضى أن يكون – كما قيل – سيىء السمعة في مجتمعه ، سلوكاً لا شعراً ، فشعره كما جاء في مقدمة ديوانه خال مما يشير إلى هذا الأسلوب الماجن ، وليس بأعنف مما كان يقوله عمر بن أبي ربيعة ، فهو في شعره محتاط كل الاحتياط ، وعلى عكس ما كان في مغامراته التي لم تكن تعرف حدوداً ، وهكذا ينتفي كون الشعر « وثيقة » كاملة عن حياة الشاعر .

-٢-

بدأ الشاعر قصيدته بفكرة الضياع ، وأعجب من هذا أنه شارك في الحياة الجادة ، وكان له من انتمائه إلى الخليفة عثمان ما يدفعه إلى الصدارة ، ولكن الظروف من حوله تجمعت ضده ،ودفعته بعيداً عن موطن الطموح ، وجعلته يتهم في جناية قتل ، ويُسْجن ، ومن ثم كانت هذه الصرخة ! لقد أعدنفسه من قبل ليكون مقاتلاًوحارساً لحدود الدولة ، ولكن الأحداث دفعته عن هذا كله ، دفعته عن يوم الكريهة ، وسداد ثغر بكسر السين (٢) ، وقد تردد هذا البيت في التراث ، وجرى مجرى التضمين ، فكان مما قال الحريري

على أني سأنشد بعد بيعي
أضاعوني وأيُّ فتىً أضاعوا

وقال الغرناطي:

له شفة أضاعوا النشر منها
بلثم حين سدت ثغر بدري
فما أشهى لقلبي ما أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

ومن الواضح أن النغم الحقيقي يرجع إلى قول الخنساء :

على صخر .. وأيُّ فتى كصخرٍ
ليوم كريهة ، وطعان خلس

وهو يشرح مأساته فيذكر أن من كان يعدهم عدته عند البأس ، تخلوا عنه عند الشدة ، وكأنه ليس من أشراف الناس ، ولا ينتهي نسبه إلى عمرو بن عثمان بن عفان ، ولكنه على الرغم من ذلك يتهم ويساق إلى السجن ، فيصبر لعل الخليفة هشام بن عبد الملك يلتفت إليه ، ويضعه في المكان الذي يليق به ، ومن ثم يكون له الحق في الثناء على من أنصفه ، والهجاء لمن أغضبه ، فهو هنا يحتفظ بروح المقاتل الذي لن يترك ثأره ، والذي يتوعد بهذاالثأر ، على الرغم من المحنة التى يعيش فيها .

-٣-

رسم لنا الشاعر شخصية الضائع في المجتمع القديم ، ثم نراه تنطبق عليه ملامح الغريب التي حددها أبو حيان التوحيدي في قوله « أين أنت عن غريب قد طالت غربته في وطنه ، وقل حظه ونصيبه وسكنه ؟ وأين

أنت عن غريب لا سبيل له إلى الأوطان ، ولا طاقة به على الاستيطان » فهو هنا من خلال النص مغترب عن ذاته ، ومنقسم على نفسه ، وضائع بين نسبه القديم و حاضره الأليم ، ومن ثَمَّ يمكن القول بأنه تولد عنده ما يسمى « بالوعي الشقي » في الحياة ، فهو لا يستطيع أن يضع حداً لاغترابه ، ولا يستطيع - كما يقول أهل الفلسفة - التخارج ، بمعنى أن يخرج ذاته على نحو سليم ، إن ما يعرفه أنه واقع في أزمة ، وأنه على الرغم من معرفته بأبعاد هذه الأزمة ، إلا أنه لا يستطيع التخلص منها ، أو يضع لها حدوداً .. ومن ثم يقرر أنه ضاع في الضياع الذي وضعه فيه عصره مع أنه لا يستحق ذلك !

-٤-

القصيدة من الوافر الذي عروضه - وضربه - مقطوعة بمعنى الجمع بين الحذْف والعصْب ، ولعل هذا وراء تسارع نغمه بمعنى سرعة العجز للحاق بالصدر ، وقد قيل إن أحسن ما يصلح له هذا البحر هو الاستعطاف والبكائيات ، وإظهار الغضب فى معرض الهجاء والفخر .. وكل هذا ليس بعيدا عن موضوع القصيدة ، أما قافية الراء فتفيد التكرار ، لأن طرف اللسان يطرق حافة الحنك طرقاً ليناً يسيراً يتراوح -كما قيل - بين المرتين والثلاث ، والكسرة هنا تعطي دلالة على الانكسار الذي يتعامل معه الشاعر .

-٥-

وأخيراً .. فاذا كان البيت الأول قد تعامل مع ما يسمى بلاغياً « التقسيم » ،و « الواردة » فإنه في الوقت نفسه يدخل فى باب المثل السائر ، والذي يقال إنه سُمِّي بذلك لأنه ماثل لخاطر الإنسان أبدا ، أي شاخص يتأسى به ، ويتعظ ويخشى ، ويرجو !

تعليقات :

١) جاء في الأغاني : كان الوليد بن يزيد مضطغنا على محمد بن هشام في أشياء كانت تبلغه عنه فى حياة هشام بن عبد الملك ، فلما ولي الخلافة قبض عليه وعلى أخيه إبراهيم بن هشام ، وأشخصا إليه في الشام ثم دعا بالسياط ، فقال محمد : أسألك بالقرابة ، فقال : وأي قرابة بيني وبينك ؟ وهل أنت إلا رجل من أشجع ؟ قال : فأسألك بصهر أمير المؤمنين ، قال : ولكنك لم تحفظه فقال له : يا أمير المؤمنين : قد نهى رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يضرب بالسياط إلا في حد .. قال : ففي حد وقود ، أنت أول من سن ذلك على العرجيّ ، وهو ابن عمي ، وابن أمير المؤمنين عثمان ، فما رعيت حق جده ، ولا نسبه بهشام ،و لا ذكرت حينئذ هذا الخبر ، وأنا ولي ثأره ، ثم قال لغلامه : اضرب ياغلام ، ثم أثقلا بالحديد ، ووجه بهماإلى والي الكوفة وكان مما قال : ونفسك نفسك إن عاش أحدهما ، وبالفعل عذبا ،وماتا في يوم واحد.

وقد ذكر هذا الخبر للرشيد ، وكان مما قاله لمحدثه : والله لولا ما حدثتني به من فعل الوليد ، لما تركت أحداً من أماثل مخزوم إلا قتلته بالعَرْجيّ .

٢) روى النضر بن شميل أن المأمون قرأها بفتح السين في حديث شريف كا ن يتمثل به ، فتلطف النضر وقرأها بالكسر ، فلما قال المأمون : ويحك أتلحنني ؟ قال النضر: السداد بالفتح القصد في الدين والسبيل ، والسداد بالكسر : البلغة وكل ما سددت به شيئا فهو سداد ، وأنشد بيت العرجي فقال المأمون : قبح الله من لا أدب له ، ثم أطرق مليا .

* عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان ، ولقب بالعَرجي نسبة إلى أرض له بالقرب من الطَّائف ، توفيَ عام ١٢٠هـ .